لأنها أعلام الإسلام وشعائر الدين ولأن تاركها يستحق الذم والمقت. فوجب إماطة التهمة بالإظهار، وإن كان تطوعًا فحقه أن يخفى لأنه مما لا يلام بتركه ولا تهمة فيه، فإن أظهره قاصدًا للاقتداء به كان جميلاً، وإنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين فيثنى عليه بالصلاح. وعن بعضهم أنه رأى رجلاً في المسجد قد سجد سجدة الشكر وأطالها، فقال: ما أحسن هذا لو كان في بيتك! وإنما قال هذا لأنه توسم فيه الرياء والسمعة، على أن اجتناب الرياء صعب إلا على المرتاضين بالإخلاص. ومن ثم قال رسول الله ﷺ: الرياء أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة المظلمة على المسح الأسود.

وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾.

﴿الماعون﴾ الزكاة. قال الراعي: قوم على الإسلام لما يمنعوا، ماعونهم ويضيعوا التهليلا وعن ابن مسعود: ما يتعاور في العادة من الفأس والقدر والدلو والمقدحة ونحوها: وعن عائشة: الماء والنار والملح. وقد يكون منع هذه الأشياء محظورًا في الشريعة إذا استعيرت عن اضطرار، وقبيحًا في المروءة في غير حال الضرورة. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة أرأيت غفر الله له إن كان للزكاة مؤديًا»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الكوثر مكية

في قراءة رسول الله ﷺ: إنا أنطيناك بالنون[2]، وفي حديثه ﷺ: «وأنطوا الثبجة»[3]. والكوثر فوعل من الكثرة. قيل لأعرابية رجع ابنها من السفر: بم آب ابنك؟ قالت: آب بكوثر. وقال:

وأنت كثير يا ابن مروان طيب ... وكان أبوك ابن العقائل[4] كوثرا

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾.

وقيل: الكوثر نهر في الجنة. وعن النبي ﷺ أنه قرأها حين أنزلت عليه فقال: «أتدرون ما الكوثر؟ إنه نهر في الجنة وعدنيه ربي فيه خير كثير»[5]. وروى في صفته: أحلى من العسل، وأشد بياضًا من اللبن، وأبرد من الثلج، وألين من الزبد، حافتاه الزبرجد وأوانيه من فضة عدد نجوم السماء[6]. وروى: لا يظمأ من شرب منه أبدًا، أول وارديه فقراء المهاجرين الدنسو الثياب الشعث لرؤوس الذين لا يزوجون المنعمات، ولا تفتح لهم أبواب السدد، يموت أحدهم وحاجته تتلجلج في صدره لو أقسم على الله لأبرّه[7]، وعن ابن عباس أنه فسر الكوثر بالخير الكثير. فقال له سعيد بن جبير: إن ناسًا يقولون: هو نهر في الجنة. فقال: هو من الخير الكثير.

فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾.

والنحر نحر البدن، وعن عطية هي صلاة الفجر بجمع، والنحر بمنى. وقيل: صلاة العيد والتضحية، وقيل: هي جنس الصلاة، والنحر وضع اليمين على الشمال. والمعنى: أعطيت ما لا غاية لكثرته من خير الدارين الذي لم يعطه أحد غيرك، ومعطى ذلك كله أنا إله العالمين[8]، فاجتمعت لك الغبطتان السنيتان إصابة أشرف عطاء وأوفره من أكرم معطٍ وأعظم منعم، فاعبد ربك الذي أعزك بإعطائه وشرفك وصانك من منن الخلق مراغمًا لقومك الذين يعبدون غير الله، وانحر لوجهه وباسمه إذا نحرت مخالفًا لهم في النحر للأوثان.

إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾.

﴿إن﴾ من أبغضك من قومك لمخالفتك لهم **﴿هو الأبتر﴾**، لا أنت. لأنّ كل من يولد إلى يوم القيامة من المؤمنين فهم أولادك وأعقابك، ونكرك مرفوع على المنابر والمنار وعلى لسان كل عالم وذاكر إلى آخر الدهر، يبدأ بذكر الله ويثنى بذكرك، ولك في الآخرة ما لا يدخل تحت الوصف. فمثلك لا يقال له: أبتر، وإنما الأبتر هو شانئك المنسى في الدنيا والآخرة، وإن ذكر ذُكِرَ باللعن. وكانوا يقولون: إنّ محمدًا صنبور إذا مات مات ذكره. وقيل: نزلت في العاص بن وائل وقد سماه الأبتر، والأبتر الذي لا عقب له. ومنه الحمار الأبتر الذي لا ذنب له. عن رسول الله ﷺ[9]: «من قرأ سورة الكوثر سقاه الله من كل نهر في الجنة ويكتب له عشر حسنات بعدد كل قربان قربه العباد في يوم النحر أو يقربونه»[10].

---

(1) أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه في تفاسيرهم زيلعي 4/ 299.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرك في كتاب القراءات...

(3) تقدم في يونس.

(4) العقائل: جمع عقيلة وهي في الأصل المرأة الكريمة النفيسة.

(5) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: حجة من قال: البسملة آية من أول كل سورة (الحديث رقم: 53 ـ 400).

(6) أخرجه الحاكم في المستدرك 3/ 171.

(7) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر الحوض (الحديث رقم: 4303)، وأخرجه أحمد في المسند (الحديث رقم: 5/ 275).

(8) قال أحمد: جعل الزمخشري توسط الضمير بين الجزءين مفيد للاختصاص؛ لأن إفادته ههنا لذلك بينة مكشوفة.

(9) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم زيلعي 4/ 305.

(10) ذكره الزبيدي في الاتحاف 9/ 645، وصدره عند الترمذي من حديث أنس في كتاب: ثواب القرآن (10).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الكافرون مكية

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾.

المخاطبون كفرة مخصوصون قد علم الله منهم أنهم لا يؤمنون. روي أنهُ رهطًا من قريش قالوا: يا محمد هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة. فقال: معاذ الله أن أشرك بالله غيره. فقالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك، فنزلت. فغدا إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش فقام على رؤسهم فقرأها عليهم فأيسوا.

لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾.

﴿لا أعبد﴾ أريدت به العبادة فيما يستقبل لأنّ لا تدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال، كما أن ما لا تدخل إلا على مضارع في معنى الحال، الا ترى أنّ لن تأكيد فيما تنفيه لا. وقال الخليل في لن أنّ أصله لا أنّ. والمعنى: لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم، ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلب منكم من عبادة إلهي.

وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾.

﴿ولا انا عابد ما عبدتم﴾ أي: وما كنت قط عابدًا فيما سلف[1] ما عبدتم فيه. يعني: لم تعهد مني عبادة صنم في الجاهلية، فكيف ترجى مني في الإسلام.

وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾.

﴿ولا انتم عابدون ما اعبد﴾ أي: وما عبدتم في وقت ما أنا على عبادته.

فإن قُلْتَ: فهلا قيل: ما عبدت، كما قيل: ما عبدتم؟ **قُلْتُ:** لأنهم كانوا يعبدون الأصنام قبل المبعث وهو لم يكن يعبد الله تعالى في ذلك الوقت.

فإن قُلْتَ: فلم جاء على ما دون من؟ **قُلْتُ:** لأنّ المراد الصفة كأنه قال لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق. وقيل: أن ما مصدرية أي: لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي.

لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾.

﴿لكم دينكم ولي دين﴾ لكم شرككم ولي توحيدي. والمعنى أني نبي مبعوث إليكم لأدعوكم إلى الحق والنجاة، فإذا لم تقبلوا مني ولم تتبعونني فدعوني كفافًا ولا تدعوني إلى الشرك. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكافرين فكأنما قرأ ربع القرآن وتباعدت منه مردة الشياطين وبرئ من الشرك ويعافى من الفزع الأكبر»[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة النصر مدنية

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾.

﴿إذا﴾ منصوب بسبح، وهو لما يستقبل، والإعلام بذلك قبل كونه من أعلام النبوّة. روي أنها نزلت في أيام التشريق بمنى في حجة الوداع.

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين النصر والفتح حتى عطف عليه؟ **قُلْتُ:** النصر الإغاثة والإظهار على العدوّ، ومنه نصر الله الأرض غاثها. والفتح فتح البلاد، والمعنى: نصر رسول الله ﷺ على العرب أو على قريش وفتح مكة. وقيل: جنس نصر الله للمؤمنين وفتح بلاد الشرك عليهم. وكان فتح مكة لعشر مضين من شهر رمضان سنة ثمان، ومع رسول الله ﷺ عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وطوائف العرب، وأقام بها خمس عشرة ليلة، ثم خرج إلى هوزان وحين دخلها وقف على باب الكعبة ثم قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده. ثم قال: يا أهل مكة ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء. فأعتقهم رسول الله ﷺ[3]. وقد كان الله تعالى أمكنه من رقابهم عنوةً وكانوا له فيأ فلذلك سمى أهل مكة

---

(1) قال أحمد: هذا الذي قاله خطأ على الأصل والفرع جميعاً، إما على أصله القدري، فإنه وإن كان مقتضاه أنّ النبي ﷺ لم يكن قبل البعث على دين نبي قبله، لاعتقاد القدرية أن ذلك غميزة في منصبه ومنفر من اتباعه، فيستحيل وقوعه للمفسدة، إلا أنهم يعتقدون أنّ الناس كلهم متعبدون بمقتضى العقل بوجوب النظر في آيات الله تعالى وأدلة توحيده ومعرفته، وأن وجوب النظر بالعقل لا بالسمع، فتلك عبادة قبل البعث يلزمهم أن لا يظنوا به ﷺ الإخلال بها، فحينئذ يقتضي أصلهم أنه كان قبل البعث يعبد الله تعالى، فالزمخشري حافظ على الوفاء بأصله في عدم اتباعه لنبي سابق، فاخل بالتفريع على أصله الآخر في وجوب العبادة بالعقل، والحق أنّ النبي ﷺ كان يعبد قبل الوحي ويتحنث = في غار حراء، فإن كان مجيء قوله: أعبد؛ لأنّ الماضي لم يحصل فيه هذه العبادة المرادة في الآية، فيحمل الأمر فيها والله أعلم على مجموع العبادات الخاصة التي لم تعلم إلا بالوحي، لا على مجرّد توحيد الله تعالى ومعرفته، فإنّ ذلك لم يزل ثابتاً له ﷺ قبل البعث، والله أعلم، أو يكون مجيئه مضارعاً لقصد تصوير عبادته في نفس السامع وتمكينها من فهمه، كقوله: ﴿ألم تر أنّ الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة﴾ والأصل: فأصبحت، وإنما عدل عنه للمعنى المنكور وهو وجه حسن فتأمله، والله أعلم.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الفتح في رمضان (الحديث رقم: 4275).

(3) أخرجه الإمام أحمد في المسند (الحديث رقم: 3/343).